

بحث في: وجوب التمسك بهدي النبي في الحج والبعث عن البدع ومحدثات الأمور

صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا، أما بعد: فقد ثبت أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقول في خطبه: { إن أحسن الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد -صلى الله عليه وسلم- وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار } وفي هذا الحديث أنه صلى الله عليه وسلم يحث الأمة على أن يعملوا بالقرآن الذي هو النور والهدى، ويحذروهم عن الإعراض عنه وعن التكذيب به، وقد توعده الله من أعرض عنه قال الله تعالى: { قَمِنَ اتَّبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } . والهدى الذي من اتبعه لا يضل هو كتاب الله وهدي النبي -صلى الله عليه وسلم- والذكر الذي يضل من أعرض عنه هو كتاب الله تعالى، وسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم-. وحيث إن كل مسلم يفترض أن يكون من أهل الإسلام الحقيقي ومن أتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- ويحب أن يحشر في زمرة أمته، وأن يكون من المحبين له فإن على المسلمين جميعًا أن يحرضوا على اتباع هذا القرآن، وعلى الاقتداء به، وعلى اتباع النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- والتقييد بسنته وبشريعته، وعدم الابتداء؛ حيث أخبر أن كل محدثة بدعة. أي كل ما أحدث في الشرع فإنه يعتبر بدعة مضافة إلى الشرع، مردودة على من جاء بها؛ لقول النبي -صلى الله عليه وسلم- { من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد } أي مردود عليه. ولا شك أن من ذلك أمور العبادات التي شرعها الله تعالى على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم- وحث أمته على أن يعلموا بها. أمور الحج من العبادات، فكل مسلم يحب أن يقتدي بالنبي -صلى الله عليه وسلم- في هذه الشريعة، يحب أن يقتدي به في هذه الشعائر، وفي هذه المناسك، وأن يكون من المقنتين به والمتبعين له والمتمسكين بسنته التي أوصى بالتمسك بها في آخر حياته. ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه: { أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد؛ فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة } فهكذا أمر بأن تتمسك بسنته. تمسكوا بها يعني: اقبضوا عليها بالأيدي، وإذا خفتم أن تتفك فعضوا عليها بالنواجذ وهي أقاصي الأسنان؛ ذلك كله حث على التمسك بالسنة؛ وذلك لأنه عرف بأن هناك مبتدعة، هناك ضلال ومبتدعة يحدثون في الشرع ما ليس منه، وبضيفون إليه أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، وبشرعون للأمة شرعا لم يأذن به الله، يدخلون في قول الله تعالى: { أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ } وشرع الله تعالى كامل. أنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع في يوم عرفه قول الله تعالى: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } . فأخبر بأنه قد أكمل دين الإسلام والكامل لا يحتاج إلى زيادة ولا إضافة شيء . فعلى هذا المسلم يحرض على أن يسأل عن السنة النبوية في هذه الأعمال ويتبعها، ويحرض على التقيد بها بدون زيادة وبدون نقصان أو خلل. ولقد أخبر صلى الله عليه وسلم بأن هناك بدع ومحدثات، وإنها زيادة على شرع الله تعالى؛ فذلك لا يجوز لأحد أن يبتدع أو يفعل تلك الزيادات التي ليست في دين الله من شيء، ونذكر لذلك أمثلة؛ ليكون المسلم على بصيرة من دينه. فمن ذلك أمور تفعل في الطواف بالبيت وفي الصفا والمروة كالذين يتعلقون بأستار الكعبة ويدعون أنها تعصمهم أو تنفعهم مبتدعة، والذين يتمسحون بجدران الكعبة مبتدعة أيضا، والذين يتمسحون بجدار الحجر جبر إسماعيل مبتدعة أيضا، وكذلك الذين يتمسحون بزجاج المقام مقام إبراهيم كلما مروا عليه مسحوا بأيديهم، ومسحوا بها وجوههم، لا شك أن هذه لم يفعلها النبي -صلى الله عليه وسلم- ولا شك أنهم خطأ في ذلك؛ حيث إنهم يعتقدون أنها تنفعهم، أن هذه الكسوة تنفعهم، وأنها تشفيهم أو أن هذا الزجاج أو هذه الحجارة تشفي مرضاهم، أو تدفع عنهم الأذى، أو تجلب لهم الخير؛ فيتعلقون بها وهذا تعلق بغير الله. وقد أبطل النبي -صلى الله عليه وسلم- التعلق بالمخلوقات، وأمر المسلمين أن يكون تعلقهم بربهم، وأن يعتمدوا على الله تعالى في نفعهم، وفي جلب الخير لهم؛ فإنه الذي يمرض وينشف، كما حكى الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: { فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } فهذا خبر من الله عن إبراهيم أن المسلم الموحد يتعلق بربه، ولا يتعلق بهذه الأحجار ولا بهذا الزجاج أو غيره. وهكذا أيضا الذين يصعدون الجبال يعتقدون أن صعودها فيه بركات. صعودهم من جبل الرحمة واعتقادهم أن حجارتها، أو أن الجبل نفسه ينفعهم، أو يتبركون بصعوده، أو أن العمل في سطحه أفضل منه في غيره، وكذلك الذين يصعدون إلى غار حراء الذي كان يتعبد به النبي -صلى الله عليه وسلم- قيل أن ينزل عليه الوحي، أو يصعدون إلى غار ثور الذي اختفى فيه النبي -صلى الله عليه وسلم- عندما خرج. ولا شك أن هذا ليس من الشرع؛ ولو كان من الشرع لفعله النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد أن أوحى إليه، وفعله بعد أن حج حجة الوداع أو اعتمر عمرة، لا ... صعود مثل هذه الجبال؛ فذلك الذين يتبركون بالمكان، هناك مواقع، ويقولون: هذا مولد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أو هذا مولد علي بن أبي طالب وما أشبه ذلك، وكل هذه لا حقيقة لها، ولا يتعلق المسلم بها وليس لها فائدة. كذلك أيضا نبيه على أن الذين يعتقدون أن الحج لا يكون إلا بزيارة قبر النبي -صلى الله عليه وسلم- وقبور الشهداء وقبور أهل مكة والمدينة ويرون أن رجوعه دون أن يزوروه يعتبر نقضا في عبادتهم، وهذا أيضا اعتقاد خاطئ؛ وذلك لأن الأحاديث التي يتعلقون بها مكذوبة موضوعة، مثل الحديث الذي يقول فيه: (من حج ولم يزرني فقد جفاني) هذا كذب على النبي -صلى الله عليه وسلم- وقولهم: (من زارني بعد مماتي فكأنما زاني في حياتي) هذا أيضا مكذوب، وكذلك قولهم: (من زارني في دار أبي إبراهيم في سنة واحدة وجبت له شفاعتي). وأشباه ذلك؛ فهذه لا يصح منها شيء ولو رواها أمثال الدارقطني وأمثال الطيالسي فلا عبرة بها؛ فأسانيدها واهية ضعيفة. فإذا أراد الإنسان أن يزور المدينة أن يكون قصده المسجد النبوي أن يزور المسجد؛ وذلك لأنه الذي تصاعف الصلاة فيه بالف: { الصلاة في المسجد النبوي تعدل ألف صلاة فيما سواه } فإذا كان الإنسان يتطلع إلى زيارة المدينة جعل زيارته للمسجد، ومتى وصل إلى المسجد فصلي فيه ركعتين لا بأس بعد ذلك أن يزور القبر النبوي وقبر الخلفيتين، وبأنى القبر ويسلم؛ السلام عليك يا رسول الله، أشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، اللهم اجزه عنا خير ما جزيت نبيا عن أمته، اللهم إنا نسألك أن ترفع مكانه وأن تؤتبه المقام المحمود والدرجة والوسيلة والدرجة الرفيعة. وكذلك تسلم على أبي بكر السلام عليك يا خليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسأل الله أن يجزيك ما جرى خليفة عن هذه الأمة. ثم يسلم أيضا على عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فيشهد له بأنه قد قام بالخلافة أحسن قيام، وأنه جاهد في الله حق جهاده، وهكذا يزور البقيع التي فيه قبور كثير من الصحابة وإن كانت غير محددة. القبور المحددة ليست صحيحة، الذين يقولون هذا قبر عثمان أو هذا قبر فاطمة ليس لهم علم لأن القبور هذه اشتبه بعضها ببعض ولا يظهر شيء منها. كذلك أيضا إذا زار قبور الشهداء في أحد زارهم وسلم عليهم جميعا ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، ولا يخص أحدا لا حمزة ولا غيره؛ وذلك لأنهم جميعا اختلفت قبورهم ولم يتميز منها قبر عن قبر، وهم سبعون من الصحابة. لا شك أن هذا مشروعا. وزيارة القبور مشروعة، حتى في كل بلد أن يزور الإنسان قبور بلده كلما أحس بقسوة في قلبه؛ قال النبي -صلى الله عليه وسلم- { كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها؛ فإنها تذكركم بالآخرة } . فزيارة القبور فيها فائدتان: الأولى: تذكر الآخرة وتذكر الاستعداد للموت، ولما بعد الموت. والثاني: الدعاء للأموات. كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: { السلام عليكم أهل الديار من المسلمين والمؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لأحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية، أتم لنا سلف ونحن في الآخر } . { اللهم لا تحرمننا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، واغفر لنا ولهم } ، فهذا هو المشروع في زيارة القبور. الدعاء لهم، والسلام دعاء... ولا يدعون مع الله. وكذلك يترحم عليهم برحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، وكذلك أيضا يدع لهم؛ اللهم لا تحرمننا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم. فهذا هو المشروع في زيارة القبور، سواء قبور أهل المدينة أو غيرهم، ولا يجوز شد الرجال لزيارة القبور بل يزورها من قريب؛ فإن كل بلدة لا تخلو أن يكون فيها قبور فيزورها من قريب دون أن يرحل إليها. هذا هو المشروع، فيتمسك المسلمون بسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ويتبعوا عن البدع؛ حتى يكونوا من أهل السنة الذين أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأنهم: { أهل الفرقة الناجية .. إلى قيام الساعة } .